

دلالات الحب في لسان العرب بين المحلي والإنساني: مقارنة دلالية تأويلية

ليلى العبيدي

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الشارقة، الشارقة،
دولة الإمارات العربية المتحدة

ORCID: 0000 0002 5091 0139

labidi@sharjah.ac.ae

المخلص

الحب يعتبر قيمة إنسانية جوهرية تجمع البشر رغم تنوعهم الثقافي والديني والعرقي. هذه القيمة، التي تُعبّر عنها جميع اللغات، سواء كانت حية أو منقرضة، تجد تعبيراً فريداً ومتميزاً في اللغة العربية التي تعتمد على نظام الجذور في تركيبها، مما يمنحها قدرة خاصة على توضيح مفهوم الحب بشكل عميق.

ابن منظور، في معجمه "لسان العرب"، يركز على جذور الكلمات في اللغة العربية، متتبّعاً استخدامها في النصوص الدينية مثل القرآن الكريم والأحاديث النبوية، بالإضافة إلى الأدب العربي من شعر وقصص. يدرس جذر "حب" والكلمات المشتقة منه مثل "الحب" و"المحبة"، و"الحب" بمعنى البذور، و"الخباب" بمعنى الفقاقيع التي تطفو على سطح الماء أو قطرات الماء، ما يدلّ على أنّ قيمة الحب عند العرب باعتباره نقبض الكره سواء تعلّق الأمر بالعاطفة التي يكتنّها الإنسان لغيره من بني جنسه أو للحيوان أو للطبيعة أو حتى لله ذاته.

يعتبر ابن منظور أن الحب مرتبط بالنماء والخصوبة، مشيراً إلى أهمية الماء كعنصر حيوي للنمو الذي يشبه نمو النباتات. يشدد على أن الحب، مثل النبات، يحتاج إلى الماء ليزدهر وينمو، مستعيناً بالآية القرآنية "وجعلنا من الماء كل شيء حي". من خلال هذا التحليل، يبرز ابن منظور الحب كعاطفة شاملة تربط الإنسان بأقرانه، بالطبيعة، وبالإلهي، مفسراً كيف يُعد الحب جوهر الوجود والعلاقات الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: الحب، الدلالة، الاشتقاق، لسان العرب، التأويل، الإنساني، المحلي.

Connotations of Love in Lisan al-Arab: Between the Local and the Human: A Semiotic Interpretive Approach

Leila Labidi

Associate Professor, Department of Arabic Language, College of Arts, Humanities, and
Social Sciences, University of Sharjah, Sharjah, United Arab Emirates

ORCID: 0000 0002 5091 0139

labidi@sharjah.ac.ae

Abstract

Love is the highest human value that unites humanity across various races, religions, and cultures. Each language, whether extant or extinct, uniquely articulates the concept of love as understood by its speakers. The Arabic language, with its distinctive "root" system, specifically conveys this value distinctively compared to Indo-European languages.

Ibn Manzur, in his linguistic lexicon, utilizes Arabic to trace the roots of words used in the Holy Quran, prophetic sayings, and literature, including poetry and stories. He examines the root "habab" and its derivatives such as "love," "affection," "seed," and "foam." Additionally, he

references "bubbles," which symbolize bubbles floating on water or water droplets.

This analysis highlights that love in Arabic culture, seen as the opposite of hate, encompasses not only human emotions towards others, animals, nature, and even God but is also intimately linked with growth and fertility, mainly through the vital elements of water and plants. Human love, comparable to a plant, requires water to grow and flourish, echoing the Quranic phrase, "And We made from water every living thing." This portrayal underscores love's pervasive role in fostering life and connection in the Arab worldview.

Keywords: Love, Significance, Derivation, Lisan al-Arab, Interpretation, Human, Local.

تمهيد

يقول ابن حزم الأندلسي (ت) "الحب أوله هزل وآخره جدّ، دقّت معانيه لجلالته عن أن تُوصف، فلا تُدرك حقيقتها إلاّ بالمعانة" (ابن حزم الأندلسي، 2016). وفي الحقيقة فإنّ المعانة ليست من مشتقات الحبّ الذي يصل الأنثى بالذكر وإنّما يكاد يكون من مشتقات كلّ أنواع الحبّ ولو أزمه ولعلّ أفضل دليل على ذلك هي الأوجاع والآلام التي يكابدها المتصوّفة المسلمون في الحبّ الإلهي بمجاهدتهم لأنفسهم وقمعهم لرغباتهم وشهواتهم وانصرافهم الكلّي إلى محبوبهم بالعبادات الشاقة حتّى ينالوا ما يعتقدون أنّه وصال أو اتصال، بل توخّد به وهو الحبّ الذي رأى فيه باحثون من غير العرب والمسلمين من أفضل ما أبدعت الإنسانية جمالية ورفعة قيمية وأدبية في محبة المخلوق لخالفه.

غير أنّه إذا اقتصرنا على حبّ الإنسان للإنسان وهو أسمى القيم الإنسانية الذي تواضعت عليه البشريّة منذ أقدم العصور على اختلاف أعراقها وأديانها وثقافتها للاحظنا دون عناء أنّ حبّ الرجل للمرأة قد استأثر بأهمّ ما وصلنا من الآثار الأدبية شعرا ونثرا وفي الأساطير والملاحم والخرافات الشعبية وأنّ حبّ المرأة للرجل، وبالأحرى تعبير المرأة عن حبّها للرجل لم يصلنا منه إلاّ النزر القليل متناثرا هنا وهناك في مدونات الأدب التي خطّها في الغالب الرجال وذلك لغلبة الثقافة الذكورية ولكون تغني المرأة بمحبوبها حتّى ولو كان زوجها عادة ما اعتبر مخلا بالحياء والحشمة، ولربّما دلالة على خفة المرأة ونقصان عقلها. لقد حفلت مدونات الأدب العربيّة قديمها وحديثها بأشعار نقلت قصص هيّام رجال بنساء، أي بالحبّ الذي يصل الرجل بالمرأة وعليه يرتكز الوجود البشري وبه تُضمن ديمومة النوع الإنساني واستمراره، حتّى أنّ بعض الشعراء العرب قد بلغ به الحبّ مبلغا عظيما إلى درجة الجنون مثل قيس بن الملوّح الذي هام بليلي العامريّة وثبّم بها وخلّدت أشعاره جنونه بها الذي صار مضرب الأمثال عند العرب على مرّ التاريخ وتجاوزت أخباره حدود الجزيرة العربيّة إلى أن وصل إلى ثقافات أخرى فانشغل به على سبيل المثال لا الحصر أحد أشهر المستشرقين الفرنسيين أندريه ميكال (André Miquel) الذي نقل أشعاره إلى اللغة الفرنسيّة (Majnun, 2003) فصارت إرثا للإنسانية بمساهمة عربيّة إعلاء لقيمة الحبّ في أبهى تجلّياته وفي جوهر حقيقته الأنطولوجية التي عبّر عنها ابن حزم بـ "المعانة" وشدّد على أنّها لا تُدرك إلاّ بالتجربة.

إشكالية البحث

تتمثل الإشكالية الأساسية في هذا البحث في:

كيف تُجسّد اللغة العربيّة، من خلال نظام الجذر الثلاثي وخاصة عبر مادة "حب" كما وردت في معجم "لسان العرب" لابن منظور، مفاهيم الحبّ المتعددة، ودلالاته المتشابكة اللسانية والأنثروبولوجية والروحية؟

وكيف يُظهر هذا المعجم الحبّ باعتباره قيمة إنسانية كونية مرتبطة بالنماء والخصوبة والخير، في مقابل الكره الذي يُقرن بالشرّ، وما الذي يكشفه ذلك عن التصورات الثقافية والفلسفية في الحضارة العربيّة الإسلامية حول الحب والكره؟

أهداف البحث

1. تحليل دلالة الحب في معجم "لسان العرب" من خلال تتبع الجذر "حب" والكلمات المشتقة منه.
2. الكشف عن الأبعاد الأنطولوجية والرمزية للحب كما تظهر في العلاقة بين الحب والنماء والخصوبة والماء.

3. إبراز التفرد اللغوي والثقافي للغة العربية في التعبير عن مفهوم الحب مقارنةً باللغات الأخرى، خاصةً في سياق أنظمة الجذور.
4. استقصاء العلاقة الثنائية بين الحب والكره بوصفهما متضادين داخل النفس البشرية، كما تمثلهما المعاجم والعلوم الإنسانية الحديثة (مثل التحليل النفسي).
5. الإسهام في فهم الحب كقيمة إنسانية مركزية في الفكر العربي الإسلامي، سواء على مستوى الأدب أو الفلسفة أو التصوف.

أسئلة البحث

1. كيف فسّر ابن منظور مفهوم الحب في "لسان العرب" من خلال الجذر "حب" وما هي المعاني المختلفة التي اشتقت منه؟
2. ما هي العلاقة بين الحبّ والنماء والخصوبة والماء في التصور المعجمي والقرآني والأنثروبولوجي؟
3. كيف تُجسّد اللغة العربية، مقارنةً باللغات الأخرى، التميّز في التعبير عن الحبّ عبر بنيتها الجذرية؟
4. ما هي دلالة مقابلة الحب بالكره في المعجم العربي؟ وكيف يمكن قراءة هذا التقابل في ضوء التحليل النفسي الحديث؟
5. كيف يُمكن فهم البعد الأنطولوجي والروحي للحب في السياق العربي الإسلامي، خصوصًا في التجارب الصوفية والأدبية؟

فرضيات البحث

1. الجذر "حب" في اللغة العربية يحتوي على شبكة دلالية واسعة تعبّر عن الحب في مستوياته الحسية والروحية والطبيعية.
2. الحب، كما يتجلى في "لسان العرب"، ليس مجرد عاطفة بل يمثل قيمة ترتبط بالحياة والنمو والخير.
3. البنية الجذرية للغة العربية تسمح بتقديم تصوّر أكثر عمقاً لمفهوم الحبّ مقارنةً باللغات ذات البنية غير الجذرية.
4. الثنائية "حب-كره" في المعجم العربي تعكس بُنية نفسية وثقافية عميقة لها جذور في الفكر الإنساني عامّة، والتحليل النفسي خاصة.
5. تصوّر الحب في التراث العربي الإسلامي، كما يظهر في اللغة والأدب والتصوف، يقمّ رؤية شاملة وكونية للحب تربطه بالله، بالإنسان، وبالطبيعة.

الحب في لسان العرب: مدخل مفاهيمي ومنهجي

لقد طوّى الحبّ بوصفه موضوعاً أدبيّاً وعقائديّاً في الحضارة العربيّة الإسلاميّة بحثاً ودرسا كما حظي باهتمام الفلاسفة والأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع والتحليل النفسي في الحضارة الغربيّة وخبّرت في شأنه الكتب والمقالات، ولكنّ قلّما وقع الانشغال به في معاجم اللغة العربيّة للتّفسير في دلالاته المختلفة التي لا تظهر إلّا بعد جهد تحليلي تأويلي ينطلق من الأصل إلى الفرع في تمثّل جينيالوجي (genealogical approach) الهدف منه هو إمطة اللّثام عن المعاني الخفيّة التي لا تظهر إلّا بعد القيام بما سمّاه الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (Michel Foucault) بالحفر الأركيولوجي المعرفي (Archéologie du Savoir) للوصول إلى عمق دلالات الكلمات في أبعادها المختلفة اللّسانية والسيكولوجيّة والأنثروبولوجيّة. (Foucault, 1969)

فإذا كانت كلّ اللغات الإنسانيّة سواء منها الحيّة أو الميّتة قد عبّرت كلّ على طريقتها عن معنى الحبّ كما يفهمه المتكلّمون بها ومستعملوها، فإنّ اللغة العربيّة بوصفها لغة " الجذر " بامتياز مقارنةً باللغات الهندو-أوروبيّة قد عبّرت عن هذه القيمة الإنسانيّة على نحو متميّز ومخصوص . يكفي أن نتفحّص مادة " حَبَب " في لسان العرب لابن منظور (ت 711 هـ) حتّى ندرك إلى أيّ مدى تحيل كلمة حبّ على معانٍ مختلفة تتنظّم ضمن نظام دلاليّ متشعّب يميّز بالثراء والوفرة، ويحيل على الثبات

والنبات والحمل، أي على معجم النماء والخصوبة¹. يعتمد ابن منظور كما عهدناه في معجمه للغة الضاد وهو يتتبع جذور الكلمات العربية على القرآن الكريم والأحاديث النبوية وعلى الأدب شعرا وقصصا، علاوة على المدونات اللغوية وهو يرصد جذر "حب" والكلمات التي اشتق منها، وأولها "الحب" والكلمات التي تحوم حوله وهي كثيرة كما سنرى عند تقدمنا في هذا البحث مثل "المحبة" و"الحب" و"الخباب" و"الخباب" و"الجباب" وغيرها إلى أن يصل في مرحلة أولى إلى الحبة (بفتح الحاء) مثل حب الحنطة والشعير والأرز وكل ما يأكله الناس كما يقول إلى الحبة (بكسر الحاء) وهو كل بزر من العشب وفي مرحلة ثانية إلى الخباب وهي الفقايع التي تطفو على سطح الماء أو قطرات الماء، ما يدل على أن قيمة الحب عند العرب باعتبارها نقيض الكره سواء تعلق الأمر بالعاطفة التي يكتفها الإنسان لغيره من بني جنسه أو للحيوان أو للطبيعة أو حتى لله ذاته لا يمكن أن نفهمها إلا إذا نزلناها في سياق أعم هو سياق النماء والخصوبة في عنصرها الأساسيين الماء والنبات. الحب الإنساني كالنبته ينمو! ولكن ليتسنى له ذلك لا بد له من الماء "وجعلنا من الماء (الخب) كل شيء حيا".

يستهل ابن منظور شرحه لمعنى الحب وكذلك الحب بالكسر كما يقول بالعودة إلى جذر "حب" بتعريف عام وهو تمش منطقي عام لا تعتمد فقط المعاجم في كل اللغات إلى حد يومنا هذا وإنما العلوم الاجتماعية في تعريفاتها ومقدماتها النظرية (ELSTER, 1989) وذلك بتعريف الكلمة بضدّها "وبضدّها تُعرف الأشياء" فيقول: "الخب: نقيض البغض. والخب: الوداد والمحبة"، قبل أن يضيف لاحقا: حكى الأزهرى عن الفراء قال: وحببته، لغة. قال غيره: وكرة. يكتفي ابن منظور في هذا التعريف المدخل لمادة "حب" بوضع البغض أو الكره نقيضا للحب، ما معناه أنه لتدقيق النظر في معنى الحب لا بد من تمثيل الدلالات التي تحفّ بجذر "كره" لدى المعجمي نفسه "الكره - كراهة وكراهية" وكلها معان سلبية كالغضب والغلظة والمشقة والأذى والإساءة تصل إلى أوجها حين يعرف ابن منظور الكره بالشّر هكذا في المطلق "وإنما سُمي الشّر مكروها لأنه ضدّ المحبوب" (ابن منظور، دت)، ما معناه أنه يمكننا أن نسمي الخير محبوبا لأنه ضد كل ما هو بغيض ومكروه. الحب هو الخير انطلاقا من اللسان العربي وهذا ما سنعمل على إبرازه في هذا البحث. ولكن قبل أن نصل إلى ذلك لا بد من الإشارة إلى أن تعريف الحب بضدّ البغض أو الكره والذي ورد في معجم عربي كتب منذ قرون عديدة لا يستمدّ منطقيته وعلميته من عالم اللغة فقط وإنما يُدعمه ما وصلت إليه العلوم الإنسانية الحديثة، لا سيما التحليل النفسي الذي تجسّم عناء البحث في النفس الإنسانية والكشف عن النوازع المتضادة التي تتجاذبها وأهمّها ثنائية الحب - الكره (love-hate) اللذين كثيرا ما يتواجدان متلازمين في النفس الإنسانية تلازم ظاهر الورقة ببقاها ويكون موضوعهما واحدا سواء كان حيا (إنسان - حيوان - نبات) أو جمادا (Glen, 2000) وإذا كانت لا توجد على حدّ علمنا دراسة واحدة - سواء فردية أو جماعية - قد تتبعت استعمال هذه الثنائية من الناحية الدلالية والمعجمية في اللغة العربية، وعلى خلاف ذلك قد وقع تتبع استعمال الكلمتين اللتين تعادلان الحب والكره معا دون فصل إحداهما عن الأخرى في اللغتين اللاتينية واليونانية ووقع البحث في وظائفهما الدرامية - على سبيل المثال لا الحصر - في التراجيديا الإغريقية وفي منزلتهما في الخطاب الشعري الملحمي الهيليني القديم، وذلك في ندوة علمية انعقدت في سانت إتيان (Saint Etienne) بفرنسا سنة 2009 وشارك فيها ثلّة من نقاد الأدب واللسانيين والفيلولوجيين (Philologists) من فقهاء اللغتين نُشرت أعمالهم في مؤلف جماعي بالفرنسية تحت عنوان "الحب والكره" دراسات أدبية ومعجمية. (Bruno, 2013).

وكما هو دأب ابن منظور في معجمه "لسان العرب" وهو يعرف الكلمات العربية ويشرحها ويتتبع دلالاتها المختلفة، نراه في جذر "حب" الذي اشتق منه "الخب" أو "الجب" يستند على ما اصطلاح عليه في الدراسات النقدية الأدبية الحديثة المنشغلة بالأدب القديم في شقيه المتخالف بالمقدس (Sacred literature) والدنيوي (secular literature). أمّا فيما يتعلق بالمقدس فقد التجأ ابن منظور كما هي عادة اللغويين والنحاة القدامى إلى القرآن الكريم² أولا وقبل أي مصدر آخر لتتبع معنى أحب في معنى مخصوص "أثر"، بحيث يستشهد بقول أبي عبيدة في قوله تعالى: إني أُحِبُّ حُبَّ الْخَيْرِ عن ذكر ربي (الآية 32 من

¹ اعتمدنا في هذا المقال على الطبعة الثالثة لدار المعارف - القاهرة (دت) من لسان العرب لابن منظور. وقد رأينا أنه لا فائدة لحشو الهامش بالإحالات على مادة "حب" التي تقع بين صفحة 742 وصفحة 747 (الجزء الثاني).

² اعتبر القرآن مصدرا أساسيا للغويين العرب المسلمين لا أحد قادر على تقليده من أفصح أعراب العرب وبدوهم وهو أفضل ما وصل إليه البيان العربي في اكماله وأرقى ما وصلت إليه الفصاحة والبلاغة العربية. ولذلك لا غرابة أن يجتهد المعجميون العرب، لا سيما ابن منظور في اللسان أن يعود إلى القرآن وهو يتتبع المعاني المختلفة التي انبثقت عن جذر "حب". نفس المنحى نحاه المتكلمون المسلمون الذين كانت انطلاقاتهم بالأساس لغوية تنطلق من القرآن للخوض في أكثر القضايا إغراقا في الميتافيزيقية. أنظر حول هذه المسألة:

J.R, T.M Peters, «La théologie musulmane et l'étude du langage» in Histoire Épistémologie Langage Année 1980 2-1 pp. 9-19.

سورة ص)؛ "أي لصِفْتُ بالأرض، لِحُبِّ الْخَيْلِ، حتى فانتني الصلاة" والآية قد وردت على لسان النبي سليمان عليه السلام معبرا عن ندمه في قوله أحببت بمعنى "أثرت" حب الخير بمعنى حب الخيل التي ألهاه استعراضها على القيام بفريضة الصلاة وقد توارت الشمس على الحجاب. والعرب كما هو معلوم كانت تطلق على الخيل تسمية الخير إطلاقا للكل على الجزء. غير أنه ودائما على سنة اللغويين القدامى وكذلك على غرار الفقهاء المسلمين كان لا بد من عضد القرآن بالسنة حتى تكتمل مرجعية الخطاب المعرفية والعلمية بمقاييس عصر ابن منظور³. يقول صاحب اللسان "وفي حديث فاطمة، رضوان الله عليها، قال لها رسول الله، صلى الله عليه وسلم: عن عائشة: إنها حبته أبيك. الحب بالكسر: المحبوب، والأنثى: حبة، وجمع الحب أحبب، وجبان، وخوب، وجبنة، وحب؛ هذه الأخيرة إما أن تكون من الجمع العزيز، وإما أن تكون اسما للجمع".

وقد لا يكتفي ابن منظور بظاهر الحديث وهو يشرح معنى من معاني الكلمات المشتقة من "حب" فيضيف ما يؤكد معناها كما في صفة "حبة" بشهادة من عنده يستقيها من كتب السيرة. فيقول "وفي الحديث: ومن يجترئ على ذلك إلا أسامة [أي أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي]، حب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أي محبوبه" قبل أن يضيف "وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحبه كثيرًا" وحتى يرسخ ذلك في الأذهان ينجح ابن منظور إلى التكرار فيعيد على مسامعنا وهو يعرف الحب بالمحسوب بذكر الصحابي نفسه بكنيته هذه المرة "أبو زيد" الذي كان يدعى: "حب رسول الله". وحتى يقرن ابن منظور كل معاني الحب الإيجابية بالنبي المصطفى، وبالأحرى حتى يكشف عن مدى تلونها بصبغة إسلامية، كان لا بد له أن يذكر بأن المحبة والمحبوبة جميعاً هي من أسماء مدينة النبي، حكماهما كراع، لِحُبِّ النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه إياها" وأن دلالات الكلمات المشتقة من جذر "حب" وكل المعاني الحافة بالحب والمحبة لا تتوقف فقط في أقواله وأفعاله وإنما تكشف عنها كذلك صفاته الجسدية. ففي تفسيره للحبة من الشيء: أي القطعة منه مثلما يقال للبرد: حب الغمام، وحب المزن، وحب فر لم يجد ابن منظور أفضل من الإحالة على جمال ثغره فيقول "ويقتز عن مثل حب الغمام، يعني البرد، شبه به ثغره [الضمير الغائب يعود على النبي عليه السلام] في بياضه وصفائه وبرده".

وحرصاً منه على إضفاء طابع القداسة على جذر "حب"، بل قل على قيمة الحب ذاتها، سعى أن يدعم شروحه وهو يعرض لتسمية الماء بـ "الحباب" لدى العرب القدامى بقول لأحد أقرب صحابة الرسول، وهو ابن عمه وصهره علي بن أبي طالب الذي تُنسب إليه قدرات لغوية خارقة بوصفه أحد أهم فصحاء العرب وأبلغهم لساناً⁴. ويقال لمُعْظَمِ الماء حباباً أيضاً، ومنه حديث علي، رضي الله عنه، قال لأبي بكر، رضي الله عنه: طرأت بغبابها، وفزت بحبابها، أي مُعْظَمِها".

بعد الخطاب المقدس ودائما على عادة اللغويين القدامى مثل كتابة "الكناية والتعريض" للثعالبي (1995) وكذلك الإخباريين و الرواة و الأدباء مثل الأبيشي في "المستطرف في كل فن مستظرف" (الأبيشي، د ت) وحتى الفقهاء في طرقهم لمواضيع تتعلق بالمعاملات وبضبط الأحكام مثل أحكام النساء في مثل مؤلف "أحكام النساء" لابن الجوزي (لاين الجوزي، 1980) كان لا بد لابن منظور أن يجد دعامة لمعاني مشتقات "حب" في الشعر مدونة العرب الأولى الذي قال فيه صاحب اللسان نفسه: "منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية"، والذي اعتمد عليه الجاحظ إمام البيان والتبيين في الكشف عن أسرار اللغة العربية وذخائرها باعتباره كما يقول: "وسيلة من وسائل البيان، ومعرض من معارض البلاغة وله ميسم يبقى على وجه الدهر". (الجاحظ، د ت)

يتدرج ابن منظور من العام إلى الخاص في تعريفه للحب ومرادفاته وعناصره والفاعلين فيه والمشتقة كلها من جذر "حب" مستندا على الشعر. فيورد كلمتين تعنيان الحب: الأولى "الحباب"، بالكسر: ويعني المحابة والمودة والحب ويستشهد على ذلك بالبيت التالي:

فَقُلْتُ لِقَلْبِي: يَا لَكَ الْخَيْرُ، إِنَّمَا * يُدْلِيكَ، لِلْخَيْرِ الْجَدِيدِ، حِبَابُهَا.

³ من الأمثلة الأخرى على اعتماد ابن منظور على القرآن الكريم هو إشارته إلى حديث أهل النار "فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْجَبَّةُ فِي خَمِيلِ السَّيْلِ"؛ مفسراً: "قالوا: الجبة إذا كانت خبوب مختلفة من كل شيء، والخميل: موضع يحمل فيه السيل، والجمع جبب".

⁴ تُنسب إلى علي بن أبي طالب خصال كثيرة في كتب التراث العربي الإسلامي نذكر منها علمه. وفيما يهتما في هذا السياق هو فصاحته التي أفضل ما يعبر عنها هو كتاب "نهج البلاغة"، وهو مجموعة روايات وأحاديث وخطب منسوبة إليه جمعها الشريف الرضي في القرن الرابع للهجرة (العاشر ملاحياً) وتعتبر عن قدرته الفائقة في استعمال اللغة العربية على نحو مخصوص لا يمتلكها إلا كبار الأدباء. البعض من العرب والمسلمين يشكك في مدى صحة نسبة هذا الكتاب إلى علي مع الإقرار في ذات الوقت بأن علياً كان فصيحاً وخطيباً موهوباً: أنظر حول الكتاب المنسوب إليه: نهج البلاغة، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 2004.

والثانية هي "الحُبَابُ"، بالضم: الحُبُّ. قال أبو عطاء السِّنْدِي، مَوْلَى بني أَسَد:

فَوَاللهِ مَا أَذْرِي، وَإِنِّي لَصَاقِقٌ، * أَدَاءٌ عَرَانِي مِنْ حُبَابِكِ أَمْ سِحْرُ.

أما فيما يتعلّق بالأفعال فيورد "حَبَبٌ" بمعنى جعله يحبّه وهم يتحابون، أي يُحِبُّ بعضهم البعض وكذلك يذكر حَبَّ إِلَيَّ هذا الشيء أي أحببته إلى أن يصل إلى "حَبَابُكَ" في مثل القول: "وَحَبَابُكَ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ أَي غَايَةُ مَحَبَّتِكَ مدعماً تفسيره بهذا البيت:

وَزَادَهُ كَلْفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ، * وَحَبَّ شَيْئًا إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُعَا.

وفيما يتعلّق بلفظ الحبيب، فإن ابن منظور لم يجد عناء في سرد الأشعار التي تحتوي على هذا اللفظ الشائع فيورد الأبيات الواحد تلو الآخر لكن دون أن يغفل عن الألفاظ التي تعوِّض الحبيب بمعنى المُحِبِّ والمحبوب مثل الحَبَّة والحَبُّ وهما على حدّ قوله: "بمنزلة الحبيبة والحبيب. فالحبيب يجيء تارة بمعنى المُحِبِّ كما في قول الشاعر:

"أَتَهْجُرُ لَيْلَى، بِالْفِرَاقِ، حَبِيبَهَا، * وَمَا كَانَ نَفْسًا، بِالْفِرَاقِ، تَطِيبُ" ثم يعلّق قائلاً: "أي محبّها".

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن ابن منظور الذي اختار أن يتدرّج من العام إلى الخاص في تعريفه للحبّ كشعور إنساني في المطلق قبل أن يربطه بالكائن قد اختار التمشّي نفسه حين تدرّج من سرد الأبيات التي تعبّر عن حبّ الإنسان للإنسان كما في البيت الأخير للمخيل السعدي (ت12هـ-633م) الذي يعبر عن اللوعة التي يحسّ بها من جرّاء هجران حبيبته ليلي له. ومن الطبيعي أن يعبر ابن منظور الحب الذي يصل الرجل بالمرأة لغلبة هذا النوع من الحبّ في الشعر العربي القديم، ولكن ذلك كان بسبب انشغاله بالحَبِّ باعتباره عاطفة إنسانية واعية يكتنه الإنسان للإنسان على وجه العموم دون أن يكون حكراً فقط على الحبّ الطبيعي، بل الغريزي الذي يكتنه المرء للجنس الآخر سواء كان ذكراً أو أنثى ولذلك نراه وإن شدد على حبّ الذكر للأنثى والأنثى للذكر عندما يتطرّق إلى وزن تفعل المشتقّ من حبب، أي تحبّب يقول "وتحبّب إليه: بمعنى تودّد وامرأة مُحَبَّة لزوجها ومُحَبٌّ أيضاً" فإنه يمهّد لذلك بالحديث عن محبة الإنسان للإنسان على وجه العموم قائلاً: حُبَّتَكَ وَمَحَبَّتَكَ مِنَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ أَي الذي تُحِبُّهُ. والمَحَبَّةُ أيضاً: "اسم للحُبِّ".

غير أنّ المرء لا يحبّ من المحسوسات الإنسان فحسب حتى وإن كان ذلك هو جوهر الوجود البشري الذي لا استمراريّة له ولا ديمومة إلا بالحَبِّ. وهنا لا ينبغي أن ننسى أنّ ابن منظور قد أعلمنا في شرحه لجذر "كره" أنّ العرب قد أطلقوا الشرّ على الكره باعتبار أنّ الكره يختزل معاني الشرّ كلّها في المطلق وأنّه تبعاً لذلك كانوا يعتبرون الحبّ تجسيدا للخير كلّهُ وأنّه لا نماء ولا حياة ولا استمراريّة للنوع الإنساني دون حُبِّ. وهذا ما سنعمل على إبرازه في ما تبقى من المقال حين تكشف عن اقتران معاني الحبّ الإنساني بدلالات النماء والخصوبة، ولذلك نرى ابن منظور حتّى وإن لم يسق أمثلة ولم يستشهد بأشعار تنقل لنا قصّة حبّ العرب للحيوان مثل الخيل والإبل وغيرها وهي كثيرة، فإنّه لم يهمل محبة الإنسان للجماد من خيرات الدنيا: حبه للطعام الذي أشار إليه بصريح الكلام قبل أن يسوق مثال "حبّ الأنصار التمر" معلّقاً عليه بالقول "فيجوز أن يكون بالضم كالأول، وحذف الفعل وهو مراد للعلم به، أو على جعل التمر نفس الحبّ مبالغة في حُبِّهم إياه" قبل أن يستشهد في هذا السياق ببيتين لغيلان بن شجاع التّهشلي:

أَحِبُّ أَبَا مَرْوَانَ مِنْ أَجْلِ تَمْرِهِ، * وَأَعْلَمُ أَنَّ الْجَارَ بِالْجَارِ أَرْفَقُ

فَأَقْسِمُ، لَوْلَا تَمْرُهُ مَا حَبَبْتُهُ، * وَلَا كَانَ أَدْنَى مِنْ عُيُودٍ وَمُشْرِقِ

غير أنّ حبّ الإنسان لا يكون فقط للكائنات العاقلة وغير العاقلة من خيرات الأرض وثمارها كالتمر الذي ساق عنه ابن منظور مثال حبّ الأنصار له وبيتين من الشعر يتغيّيان به، ولا غرابة في ذلك لعلنا بأهميّة التمر ليس لدى الأنصار فحسب وإنما لدى سكّان الجزيرة العربيّة بوصفه سيّد الثمار وأوفرها في هذه الربوع. يحبّ العرب كغيرهم من الشعوب محيطهم الطبيعي ويتبادلون معه عاطفة الحبّ، فكلاهما يصير محبوباً للآخر وهنا ينتقل ابن منظور في شرحه للحبّ من الحقيقة إلى المجاز دائماً وفق منطق التدرّج: التدرّج من العام إلى الخاص ومن الإنساني إلى اللاإنساني. وفي هذا السياق من الحقيقة إلى المجاز عندما يستشهد بحديث أخذ: "هو جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ". ويعلّق عليه بقول ابن الأثير: "هذا محمول على المجاز، أراد أنّه جبل يُحِبُّنَا أَهْلَهُ، وَنُحِبُّ أَهْلَهُ، وَهَمَّ الْأَنْصَارُ؛ وَيجوز أن يكون من باب المجاز الصّريح، أي إنّنا نحبّ الجبلَ بِعَيْنِهِ لأنّه في أرض مَنْ نُحِبُّ"، فيصيح الجبل تبعاً لذلك كناية عن الأنصار، ومن أحبّهم فلا بدّ أن يحبّ محيطهم الطبيعي. وهذا المعنى للحبّ

أصيل في التراث العربي، لا سيما الشعر حين تصبح ديار المحبوب موضوعاً بدورها للحب. فالأمكنة عادة- وهذا ما نجد له صدي في الأدب العالمي- تستمد مكانتها في قلوب البشر من أهمية القاطنين فيها، وهي الفكرة التي عبّر عنها الأنثروبولوجي الفرنسي مارك أوجيه (Marc Augé) في كتابه "لا أمكنة: مدخل في أنثروبولوجيا التضخم الحداثي" (بالفرنسية) (non-Lieux) (Augé, 1992) حين عرّف المكان باعتباره نقيضاً للأماكن (non-Lieux) ⁵ (Augé, 2010) لتوفّر ثلاثة عناصر أساسية فيه وهي العامل الهوي (La dimension identitaire) لشعور الإنسان فيه بالانتماء (قرية المرء أو مدينته أو حيّه الذي تربّي فيه إلى غير ذلك من الأمكنة. و العامل التاريخي لكونه على سبيل المثال يحيل على ذكرى معينة عزيزة عليه والعامل العلائقي (La dimension relationnelle) لكونه يرتبط بعلاقة حميمة عاطفية: محبة يكتفها شخص معين لشخص آخر أو مجموعة من الأشخاص مثل منزل الحبيبة أو الحبيب أو بكلّ بساطة منزل الوالدين أو المدرسة الابتدائية التي درس فيها في صغره، ما يعني أنّ هذه العوامل الثلاثة تتداخل فيما بينها وهنا يُستحسن أن نستحضر صفة " المحبوبة" التي أشار إليها ابن منظور بوصفها من تسميات المدينة المنورة لكون الرسول عليه السلام كان يحبّها لاحتضانها له عندما وفد عليها لاجئاً من ظلم قريش وعسفهم.

الحب في لاوعي اللغة: ثنائية الإيروس والتاناتوس

إنّ اللغة العربية كغيرها من اللغات لا تنقل فقط الطريقة التي يدرك بها متكلموها العالم ونظرتهم إليه ووعبهم به، وإنّما تنقل لاوعبهم (unconscious) في المعنى الذي يعطيه له التحليل النفسي، لا سيما في تعامله مع اللغة ⁶ (Balamurugan & Thirunavukkarasu, 2018). من المعلوم أنّ التحليل النفسي الذي رأيته في مستهلّ هذا المقال كثيراً ما لا يشغل بالحب بمعزل عن الكره ولا ينظر إليه إلّا مقترناً بضده، وبأضدادها تُعرف الأشياء كما في القول المأثور الذي لا بأس من أن نذكر به. مرّة أخرى يذهب نفس المذهب في النظر إلى الحبّ في علاقة بالموت في ثنائية الإيروس (Eros) والتاناتوس (Thanatos) (Laplanche, Pontalis, 1967)، والإيروس كما هو معلوم إله الحبّ في الأسطورة الإغريقية (Laplanche, Pontalis, 1967)، بينما التاناتوس هو إله الموت في عقائد اليونانيين القدامى. وقد استعارهما التحليل النفسي للتعبير عن النوازع الكامنة في النفس الإنسانية التي تتجاذبها المتناقضات والتي يتصارع فيها مبدأ المتعة (Pleasure principle) الذي يعبر عن نفسه في أرقى درجاته في عاطفة الحبّ مهما كان نوعه، ومبدأ الواقع Reality principle باكراهاته. هذا الواقع الذي يصدّ أحياناً هذه المتعة على التحقق أو الاكتمال، ما يجعل الحبّ في كثير من الأحيان يلتبس بالمعاناة التي أشار إليها ابن حزم وافتتحنا بها هذا المقال باعتبارها جوهر الحبّ لا سيما الحبّ العاطفي الذي يكون بين الذكر والأنثى، أي إذا لم يلتبس بالموت، فبمشتقاته، وبما يحيل إليه أو يذكر به مثل المرض والجنون وغيرهما. نجد لهذا التزاوج بين الحبّ والمعاناة، أو التاناتوس بمفهوم التحليل النفسي للكلمة أثراً في اللغة العربية التي تقرر، في لاوعي أصحابها الحبّ بالألم والمعاناة، ومن ثمة بالطاقة التدميرية الكامنة في النفس الإنسانية والمهددة للكائن المحبّ المتيمّ المفرط في حبه، التي يرمز إليها القعود والمرض والجنون وفي أرقى درجة الموت هادم الذات ومفرّق الجماعات.

نقرأ في لسان العرب أنّ من جذر "حب" اشتقّ "الإحباب" بمعنى البروك والقعود والإحباب من فعل "أحبّ" البعير أي برك وهو كما يقول صاحب اللسان " في الإبل، كالجران في الخيل، وهو أن يَبْرُك فلا يَثُور. قال أبو محمد الفقعسي: حُلْتُ عَلَيْهِ بِالْقَفِيلِ ضَرْباً، * ضَرْبٌ بَعِيرِ السَّوءِ إِذْ أَحَبَّ .

والقَفِيلُ هو السَّوْطُ. وبعير مُجَبُّ أي بارك [لا يقوى على حراك]. إلّا أن معنى القعود بوصفه إحالة على السكون والعطالة سيَتحوّل ضمن الصيرورة الدلالية تدريجياً في مرحلة أولى إلى كسر أو مرض وقد يصل إلى الموت. يقول ابن منظور: وَأَحَبُّ الْبَعِيرِ أَيْضاً إِحْبَاباً: أَصَابَهُ كَسْرٌ أَوْ مَرَضٌ، فَلَمْ يَبْرُكْ مَكَانَهُ حَتَّى يَبْرُكَ أَوْ يَمُوتَ" ثمّ يستشهد بقول لأبي الهيثم: الإحبابُ أن يُشْرِفَ الْبَعِيرُ عَلَى الْمَوْتِ مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ فَيَبْرُكُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْبَعِثَ. قال الرازي:

⁵ يعني مارك أوجيه ب "الأمكان" الفضاءات التي نتجت عن التضخم الحداثي () مثل العالم الافتراضي الإلكتروني وأمكنة التسوّق الكبرى في المدن ووسائل النقل مثل القطارات والطائرات وكذلك المطارات وغيرها ممّا يسمّيها هذا الأنثروبولوجي بالأمكنة لكون الإنسان يصبح فيها مجرد رقم ودون هويّة (نكرة لا يعرفه أحد ولا يعرف أحدا) تُنتزع إنسيته على خلاف المكان الذي يشعر فيه بكلّ إنسانيته/ أي بالعلاقة الحميمة (المحيّة) التي تربطه به.

⁶ بقدر ما تنقل اللغة عالم الوعي، فهي تنقل اللاوعي الإنساني الجمعي للمتكلّمين بها وقد انشغلت اللسانيات النفسية (Psycholinguistics) بهذا المبحث.

ما كان دَنِيي في مُحِبِّ بَارِك، أَتَاهُ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُوَ هَالِكٌ.

غير أَنَّهُ حينَ اعتقدنا أَنَّ "الإحْبَابَ" مرادف للقيود والمرض ثمَّ الهلاك والموت (التاناتوس) يفاجئنا ابن منظور أَنَّهُ يعني كذلك النقيض تماماً: فالإحْبَابُ هو "البُزُّ من كُلِّ مَرَضٍ وَحَبٌّ: إِذَا وَقَفْتَ، وَحَبٌّ: إِذَا تَوَدَّدْتَ"، أَي يعني الشيء وضده، في ذات الوقت الموت ومشتقاته من قيود ومرض والحياة وما يحيل عليها التعافي من المرض، والوقوف، بما هو نهوض وإقبال على الدنيا وتودد أي تعبير عن الحب للمحبوب واستمتاع بذلك (أي الايروس في أبهى مظاهره). وهكذا تجمع اللغة العربية من خلال "الإحْبَاب" بين الايروس والتاناتوس في وحدة جدلية لا تنقسم عراها على غرار التحليل النفسي الحديث وما كان لها أن تصل إلى هذه الثنائية التي تمزج بين الشيء ونقيضه (Dichotomy) لو لم تنقل لنا ما يعتمل في دهاليز اللاوعي الجماعي لمتكلمها.

الحُبّ والنماء: ارتباط "حب" بالماء والنبات

وإذا كان من دلالات ثراء اللغة العربية وتعبيرها على أحسن ما يكون عن القيم الإنسانية التي يلعب اللاوعي الجماعي دوراً مهماً في بلورتها هو نقلها لثنائية الايروس والتاناتوس التي تعتمل في النفس الإنسانية وتتصارع فيها غريزة الحياة مع غريزة الموت، فإنها تنتهي دون شك ومن خلال جذر "حب" للانتصار للحياة على حساب الموت. فحب، من معاني الحب التي ترتبط ارتباطاً جديلاً وثيقاً في لسان العرب بالنبات والماء، أي بدلالات الخصوبة والنماء. فأما فيما يتعلق بالنبات، أي كل ما ينبت في الأرض مهما كان نوعه، فإن ابن منظور يفرق بين الحب (بفتح الحاء) والحبّة (بكسر الحاء) مع اشتراكهما بالطبع في جذر "حب" قائلاً: "حَبٌّ من النَّبَاتِ، فَاسْمُ ذَلِكَ الْحَبِّ الْحَبَّةُ. وَقَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ: الْحَبَّةُ، بِالْكَسْرِ: جَمِيعُ بُزُورِ النَّبَاتِ، وَاحِدَتُهَا حَبَّةٌ، بِالْفَتْحِ، عَنِ الْكَسَائِيِّ. قَالَ: فَأَمَّا الْحَبُّ فَلَيْسَ إِلَّا الْجَنْطَةُ وَالشَّعِيرُ، وَاحِدَتُهَا حَبَّةٌ، بِالْفَتْحِ، وَإِنَّمَا افْتَرَقَا فِي الْجَمْعِ. الْجَوْهَرِيُّ: الْحَبَّةُ: وَاحِدَةُ حَبِّ الْجَنْطَةِ، وَنَحْوَهَا مِنَ الْخُبُوبِ؛ وَالْحَبَّةُ: بَزْرُ كُلِّ نَبَاتٍ يَنْبُتُ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْذَرَ، وَكُلُّ مَا بُذِرَ، فَبَزْرُهُ حَبَّةٌ، بِالْفَتْحِ".

لا يكتفي ابن منظور بهذا القول ليفرق بين النوعين، بين ما اصطلح عليه كذلك بـ: "حَبَّةُ الطَّعَامِ، حَبَّةٌ مِنْ بُرٍّ وَشَعِيرٍ وَعَدَسٍ وَأُرْزٍ، وَكُلُّ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ" أي الحبّ المُستعمل على حدّ قوله "في أشياء جمة [بما في ذلك حَبَّةٌ] من عَنَبٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْجَمْعُ حَبَّاتٌ وَحَبٌّ وَخُبُوبٌ وَخُبَّانٌ، الْأَخِيرَةُ نَادِرَةٌ، لِأَنَّ فَعْلَةً لَا تَجْمَعُ عَلَى فُعْلَانٍ، إِلَّا بَعْدَ طَرْحِ الزَّائِدِ" و الحبّ أو الحبّة التي تنبت في البرية أو في الصحراء بصفة طبيعية ويعرفها ابن منظور كما يلي: "والحبّة: بُزُورُ الْبُقُولِ وَالرَّيَاحِينِ، بُزُورُ الصَّخْرَاءِ، مِمَّا لَيْسَ بِقَوْتٍ؛ وَقِيلَ: الْحَبَّةُ: نَبْتُ يَنْبُتُ فِي الْحَشِيشِ صَغَارًا" مؤكداً على أَنَّ اسم الحبّة "لا يقع إلا على بُزُورِ الْعُشْبِ وَالْبُقُولِ الْبَرِّيَّةِ، وَمَا تَنَاطَرَ مِنْ وَرَقِهَا، فَاخْتَلَطَ بِهَا، مِثْلُ الْفُقْلَانِ، وَالْبَسْبَاسِ، وَالذَّرَقِ، وَالنَّقْلِ، وَالْمُلَاحِ، وَأَصْنَافُ أَخْرَارِ الْبُقُولِ كُلِّهَا وَذُكُورُهَا" قبل أن يستشهد بقول لابن دريد: الحبّة، بالكسر، ما كان من بَزْرِ الْعُشْبِ. وسمعت العرب تقول: رَعَيْنَا الْحَبَّةَ، ذَلِكَ فِي آخِرِ الصَّيْفِ، إِذَا هَاجَتِ الْأَرْضُ، وَيَسَّ الْبَقْلُ وَالْعُشْبُ، وَتَنَاطَرَتْ بُزُورُهَا وَوَرَقُهَا، فَإِذَا رَعَتْهَا النَّعَمُ سَمِنَتْ عَلَيْهَا".

لأول وهلة يبدو هذا التمييز بين الحبّ أو الحبّة، ما هو في نهاية المطاف إلا تمييز بين ما يحيل على الإنسان وما يحيل على الطبيعة اللّإنسانية، أي بين كلّ أنواع الحبوب التي يبذرّها الإنسان في الأرض عن دراية ومعرفة ورغبة في الانتفاع بمحاصيلها لاحقاً ولحاجته الحيوية لها في معاشه، بل في بقائه ووجوده وهي التي يمكن أن نطلق عليها مصطلحاً نستعيره من ابن خلدون في نظريته في العمران البشري بـ "الضروري والحاجي" (ابن خلدون، دت) (Gates, 1967) في حين أنّ الحبّ أو الحبّة هو كلّ ما ينبت في الأرض ولا دخل للإنسان في إنباته، علاوة على أَنَّهُ وهذا ما يبدو على الأقلّ لأول وهلة ليس ضرورياً لبقائه لكونه بعبارة "لسان العرب" لا ينفوّت به". ولكن إذا ما علمنا أنّ العرب تطلق على الحبّة كلّ ما ينبت في البرية وترعاها نعمها في آخر الصيف وتسمن عليها، أدركنا أنّها وإن لم يبذرّها الإنسان ولا تحظى برعايته واهتمامه كالحبّ فهي بتسمينها لإبله وأغنامه تكون قد أسمنتته وصارت له مثل الحبّ أكثر من ضرورية وحاجية بالمعنى الخلدوني للكلمتين. كل ما ينبت إذن هو ضروري للإنسان تماماً مثل الحبّ بالضمة، هذا الشعور الذي لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه. حياة دون حُبّ كأرض قاحلة دون نبات في نوعيه الحبّ والحبّ.

غير أَنَّهُ لنجد صلة أكثر وضوحاً وجلاء تربط دلاليّاً ومعرفيّاً (cognition) الحبّ، بما هو عاطفة إنسانية يكتّنها الإنسان لنفسه كما يكتّنها لغيره من بني جنسه كما يمكن أن يكتّنها لكلّ مكونات محيطه الطبيعي بالنبات في عنصرية: ما يبذرّه الإنسان (الحبّ) وما لا يبذرّه ولكنه ينبت بصفة طبيعية (الحبّة) لا بدّ من العودة إلى جذر "نبت" في لسان العرب. يفصّل ابن منظور القول في هذا الجذر ويحيط بدلالاته المختلفة من كلّ جانب، فيقول "والتَّابِتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: الطَّرِيقُ حِينَ يَنْبِتُ صَغِيرًا، وَمَا أَحْسَنَ نَابِتَةً

بني فلان! أي ما ينبت عليه أموالهم وأولادهم. ونبتت لهم نابتة إذا نشأ لهم نشء صغار. والنوابت من الأحداث: الأغمار... ونبت الصبي تنبتا: ربيته... ويقال إنه لحسن النبتة أي الحالة التي ينبت عليها... والمنبت هو الأصل". (ابن منظور، دت)

النبات إذن بقدر ما يحيل على النبات من "الجماد" أي على النماء والخصوبة و التجدد في الطبيعة وعلى الخير ووفرة القوت وهناء العيش الذي يتمناه البشر لأنفسهم يحيل على الذرية والعيال: نابتة ليس ثمة أحب إلى النفس لوالديهم منهم لذلك يأملان ويعملان من فرط حُبهم (بضم الحاء بالطبع) على أن ينموا ويترعرعوا مثل الحَبّ والجَبّة في تربة صالحة، في أصل ثابت ومنبت طيب وهكذا من خلال جذر "نبت" لا تعيدنا اللغة العربية فقط إلى الحَبّ (بفتح الحاء) والجَبّة (بكسرهما) وإنما إلى الحُبّ (بضمها) وفي هذا التمثيل لا بد من أن تعيدنا إلى الجذر بمعنى الأصل والمنبت، أي الهوية الجماعية للأمة التي دون التمسك بثوابتها الثقافية، لا يمكن للحُبّ في كل معانيه الإنسانية أن ينمو ويترعرع ليحني ثماره الجميع: مُحبين ومحبوبين.

وقبل أن نمضي قُدما في تفكيك العلاقات الدلالية المتشابكة بين الحُبّ والنبات في معنييه (الحَبّ و الحَبّ) نشير إلى أن أفضل ما يترجم عن حبّ الوالدين العرب لأبنائهم كما يكشف عن ذلك لسانهم و اعتبارهم مثل النبات في معنيي الحَبّ والحَبّة ليس لكونهم من جنس الضروري والحاجي فقط، ولكن أملا كذلك في أن يكونوا نابتة طيبة جذورها منغرس في الأرض (بالتربية) لتنشأ نشأة صالحة هي التسميات التي يطلقونها عليهم بمجرد ولادتهم والمشتقة من جذر "حَبَب" ⁷ فِحْبَانُ (اسم امرأة) وحَبَّانُ (اسم رجل) وهما اسمان كما يقول ابن منظور "مَوْضُوعَانِ مِنَ الحُبِّ. وَمَحَبَّبٌ: اسْمٌ عَلِمَ، جَاءَ عَلَى الْأَصْلِ، لِمَكَانِ الْعِلْمِ، كَمَا جَاءَ مَكْوُزَةٌ وَمَرْيَدٌ؛ وَإِنَّمَا حَمَلُهُمْ [أي العرب] عَلَى أَنْ يَزْنُوا مَحَبَّبًا بِمَفْعَلٍ، دُونَ فَعْلٍ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا مَا تَرَكَبُوا مِنْ (ح ب ب)، وَلَمْ يَجِدُوا (م ح ب)، وَلَوْلَا هَذَا، لَكَانَ حَمَلُهُمْ مَحَبَّبًا عَلَى فَعْلٍ أَوَّلَى، لِأَنَّ ظُهُورَ التَّضْعِيفِ فِي فَعْلٍ، هُوَ الْقِيَاسُ وَالْعُرْفُ، كَقَرَدٍ وَمَهْدٍ "تَمْ يَسْتَرْسِلُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي سَرْدِ الْأَسْمَاءِ الْمَشْتَقَّةِ مِنْ "حَبَب" أَوْ بِالْأُخْرَى الْمَوْضُوعَةِ مِنَ الحُبِّ"، فَيُذَكِّرُ اسْمَ رَجُلٍ "حَبَب" مُسْتَشْهَدًا بِقَوْلِ شَاعِرٍ:

إِنَّ لَهَا مُرْكَنًا إِرْزَبًا، * كَأَنَّهُ جَبَّهُ ذَرَى حَبًا.

كما يذكر في مرحلة أولى "جَبّة" وهو اسم امرأة مدللا على ذلك ببينتين من الشعر: قال:

"أَعْيَنِي! سَاءَ اللَّهُ مَنْ كَانَ سَرَّهُ * بُكَاءُكُمْ، أَوْ مَنْ يُحِبُّ أَدَاكُمْ ... وَلَوْ أَنَّ مَنْظُورًا وَحَبَّةً أَسْلِمَا * لَنَزَعَ الْقَدَى، لَمْ يُبْرِنَا لِي قَدَاكُمْ".

وفي مرحلة ثانية اسم "حُبِّي" وهو اسم امرأة على وزن فُعْلَى ورد في بيت للشاعر هُدْبَةُ بْنُ خَشْرَمٍ: "فَمَا وَجَدَتْ وَجَدِي بِهَا أُمُّ وَاجِدٍ، * وَلَا وَجَدَ حُبِّي بِأَبْنٍ أُمَّ كِلَابٍ".

ورغم أن السياق لا يسمح بتفصيل القول في أهمية التسمية لدى الشعوب باعتبارها أفضل ما يعبر عن نظرهم إلى أنفسهم وإلى المقدس وإلى الحياة، بل الوجود الإنساني برمته أو ما يسميها علماء الاجتماع بـ "النظرة إلى العالم"، فإننا نذهب إلى ما ذهب إليه مالك شبيل في كتابه "المتخيل العربي الإسلامي" (بالفرنسية) في الفصل الذي خصّصه للتسميات التي يطلقها العرب على مواليدهم (onomastic) أن ما أطلق عليه في اللاتينية بـ (nomina-numina) أي "أن الأسماء تحمل دلالات ربّانية" تجد لدى العرب أفضل ما يعبر عنها في الثقافات الإنسانية لأن بتسمية الطفل يكون المُسمّى [أي الوالدين أو أحدهما، عادة ما يكون الأب قديما] قد حمّله بحمولة رمزية (Chebel, 1993). ومن ثمة فهو بالإطلاق عليه سواء كان ذكرا أو أنثى تسمية مشتقة من "حَبَب" لا يأمل فقط أن يكون بذرة صالحة تنشأ وتترعرع وتتضج، فتثمر وتكون طالع خير عليه وعلى قومه فقط وإنما كذلك أن يكون مُحَبّا ومحبوبا، بحيث تندغم دلالات الحَبّ (بالفتحة والكسرة والضمة) في بعضها البعض ولم يعد من الممكن التفريق بينها والنظر إلى إحداها منفصلة عن الأخرى.

غير أن اللافت للانتباه بشدة هو الحضور في "الحُبّ" لدى العرب لمعاني الخصوبة والولادة والنماء التي تجعل من الإنسان والنبات كائنا واحدا غير قابل للقسمة، وهذا ما يؤكده لسان العرب ذاته في القول "حملت المرأة والشجرة تحمل حملا" وحمل

⁷ وثد تطلق بعض مشتقات "حب" على ما يتجاوز الفرد إلى الجماعة. يذكر ابن منظور اسم قبيلة تُسمى "حبيب". يقول صاحب لسان العرب: "حبيب: قبيلة.. قال أبو خراش "عدونا عدوة لا شك فيها، * وخلصناهم ذؤبية، أو حبيب. وذؤبية أيضا: قبيلة. وحبيب القسيري من شعرائه".

الشجرة (يفتح الحاء) تشبيه بحمل البطن" (ابن منظور، د ت). غير أنه من البيهقي ألا يكون هناك نماء بدون ماء، كما لا يمكن أن تكون هناك حياة بدون حبّ ولذلك أطلق العرب تسمية "الحمل" على السحاب الكثير الماء أي النوء والسحاب الأسود. ففكرة النماء هي الخيط الرابط الذي به تقع حياكة معنى الحبّ في لسان العرب وهنا كان من المنتظر بعد أن رأينا اللغة العربية وهي تنطلق من الأصل إلى الفرع، من الجذر إلى المشتقات المتفرعة عنه تصل إلى الربط بين الحبّ والنبات أن تذهب إلى أبعد من ذلك للوصول إلى ما لا بدّ منه لينبت ما يُبذر وما لا يُبذر: الحبّ والحبّة على حدّ سواء، ألا وهو الماء. بالماء تكتمل عناصر الحبّ كلّها: الإنسان والنبات والماء في وحدة وجود صمّاء لا تنقسم غراها وما كان ذلك ليتّم لولا الاشتراك في الأصل والجذر "ح ب ب".

يتوخّى ابن منظور في رصده للحبّ باعتباره ماء و للماء بوصفه حبّا مقارنة تنطلق من الجزء إلى الكلّ، فيعلمنا في مستوى أول أن "حبّ الماء وحبّبه، وحبابه، بالفتح: طرائفه؛ وقيل: حباب نُفَاحاته وفَقَاقِيعُه، التي تُطْفُو، كأنّها الفَوَارِيرُ، وهي اليَعَالِيلُ" وفي مستوى ثان يلفت انتباهنا إلى أنه "قيل: حبابُ الماء مَوْجُه، الذي يَتَّبِعُ بعضه بعضا قبل أن يصل من خلال التتابع في لسان العرب لمشتقات هذا الجذر الدالة على الماء- وبعضها بقدر ما يدلّ على الحبّ الإنساني يدلّ كما رأينا على النبات- إلى التأكيد على أنه "يُقال في اللغة العربيّة لِمُعْظَمِ الماء حبابٌ" كما يُقال له كذلك بضمّ الحاء "حباب" والحباب، كالحبّ. والتَّحْبَبُ: أوّل الرّيّ وتَحَبُّبِ الجمارِ وغيره: امْتَلَأَ من الماء. وشَرِبَتْ الإبلُ حتى حَبَبَتْ: أي تَمَلَّأَتْ رِيّاً وَحَبَبَتْهُ فَتَحَبَّبَ، إذا مَلَأَتْهُ للسِّقَاءِ وغيره". يرتبط الماء بمعاني التحبّب، أي الامتلاء بما هو دلالة على الإشباع في التحليل النفسي. الامتلاء عكس الفراغ أو الخواء يحيل على تحقّق الرغبة وهو من هذه الناحية اكتمال مقابل النقص من معانيه الوفرة مقابل الشحّ والخصب مقابل الجذب والجمال مقابل القبح⁸ إذا التقى بالإنسان أو بالحيوان أو بالنبات، بل بالطبيعة برمتها، ومن ثمّة فليس من قبيل الصدفة أن يطلق العرب لفظ "الحباب" على الطلّ الذي يُصبح على الشجر والنبات.

إنّ خير ما يقودنا بالإضافة إلى لسان العرب لاستبصار العلاقة الجدليّة التي تصل الحبّ الإنساني بالنبات والماء في الثقافة العربية من خارج اللغة، أو من وراء اللغة كما يُصطلح على ذلك في علم اللسانيات الحديث (metalanguage) هي الحكاية الشعبيّة في بعض بلدان الخليج العربي حيث كثيرا ما تقتزن بثنائيتي "الثبات والنبات" و"الحبّ والكرامة". ترد هاتان الثنائيتان على لسان الراوية التي عادة ما تكون الجدة أو الأمّ وهي تروي على مسامع أطفالها حكايات العجائب والغرائب، فتستهلّ حكاياتها عندما يطلب منها هؤلاء أن تقصّ عليهم حكاية مستجيبة لهم في غبطة وسرور قائلة "حبا وكرامة" وتختتمها بعد أن تدفع بأبطال حكاياتها في أتون صراع مع الأشرار من البشر والغيلان يخرجون منه ظافرين بزواج سعيد ينجبون منه ذرية أي نابتة صالحة قائلة "وعاشوا في الثبات والنبات وخلفوا صبيان أقمار و بنات قمرات" أو "عاش معها في الثبات و النبات والسماء غطاهم والأرض بساط". (الجولي، 2019)

وإذا ما علمنا أن العرب حسب ابن منظور يعنون في الأصل بلفظتي الحبّ والكرامة مقترنتين "الخشبّات الأربع التي توجد عليها الجرة ذات العروتين (الحبّة) وإنّ الكرامة هي الغطاء الذي يوضع فوق تلك الجرة من الخشب كان أو من خرف" أدركنا إلى أي مدى تُعتبر الحكاية هديّة، عربون حب من الأمّ أو الجدة إلى ابنها أو حفيدها تُختزل كلّ عاطفة الحبّ الأنثوي كلّها تجاه نابتتها. "مثلها مثل جرة الماء والنماء التي كان يسمّيها العرب القدامى حُبّة تستند الحكاية إلى عمودين: الثبات والنبات تغطيهما الكرامة. وإذا كنّا نعتقد أنّه بالحبّ خرجنا من ثنائيّة الثبات والنبات، فإنّه على العكس من ذلك قد عدنا إليهما. فمعاني الحبّ كلّها لا تعود بنا إلى النماء والنبات فقط، وإنّما ما يجعل من هذا النبات في الطبيعة والإنسان ثابتا، حيا ومستمرّا، ضمانا لاستمرار الحياة ذاتها". (الجولي، 2019)

⁸ ليس من قبيل الصدفة أن يرتبط لفظ "الحبّ" باعتباره ماء بوصف الجمال الأنثوي أي حبّ الرجل للمرأة حتّى وإن كان في ذاته وفي الأصل يدلّ على ما يجزّى على الأسنان من الماء، كقطع الفوارير كما يدلّ عندما يُستعمل مضافا للأسنان على تنصّدها (حبّ الأسنان) غير أنّ ابن منظور يسوق بينين من الشعر يكون الحب في فيه المرأة موضوعا للتغنّي. البيت الأوّل يشير إلى ما يتحبّب من بياض الرّيق على أسنان المرأة المتغزل بها: "لها جنبٌ يزى الرّأؤون منها، * كما أُمِيت، في القزو، الغزالا" والبيت الثاني يشير إلى حبّ أسنان المتغزل بها بمعنى تنصّدها عندما تضحك: "وإذا تُضحكُ تُبْدي حَبّاً، * كأقحاحي الرّمْل غدّاً، ذا أشْر". أما الحبّ أو الحباب فهو حب الماء بمعنى تكسّره (ومن ذلك موجه أو أمواجه) ويعطى مثلا على استعمال اللفظ في بيت غزلي من الشعر:

كأنّ صلاّ جهيزه، حين قامَتْ، * حبابُ الماء يَتَّبِعُ الحبابا

ويعلّق ابن منظور على هذا البيت قائلا "حين تَمْشِي. لم يُشَبَّه صلاها ومأكَمَها بالفقاع، وإنما شَبَّه مأكَمَها بالحباب، الذي عليه، (عليه أي على الماء) [بمعنى] يضيف ابن منظور: "كأنّه دَرَجٌ في حِدْبَةٍ؛ والصّلا هي العجيزَة".

غير أن لسان العرب وهو يطوف بنا في مشتقات "حَبَب" يستعرض علينا دلالة، بل قل دلالات كل واحد منها التي لا يمكن فصلها عن دلالات المشتقات الأخرى، بل لا يمكن فهم معاني مشتق من المشتقات دون العودة إلى معاني المشتقات الأخرى معبرا عن وحدة الوجود التي يُدغم فيها الإنسان بواسطة الحُب في الطبيعة بعنصرها الأساسيين: النبات والماء نراه في نهاية المطاف يعيد كل شيء إلى الإنسان وحده الكائن الوحيد الناطق الذي يمتلك القدرة اللغوية وتبعاً لذلك القدرة على أن يُحِبَّ ويعبَّر عن ذلك باللغة. وكما أن الإنسان من منظور الفلاسفة هو الكائن الوحيد الضاحك (التوحيدي، 1991) يمكننا القول كذلك أنه الوحيد المُحِبَّ والعاشق وبالطبع الوحيد القادر على أن يكره ويبغض ولربما يحقد ولذلك نرى اللغة العربية بعد كل هذا الطواف في جذر "حب" تعيد الحب أو الحبة إلى القلب وما تكون حبة القلب غير ثمرته وسويدائه التي يعزفها ابن منظور بكونها "العلة السوداء التي تكون داخل القلب وهي حماسة القلب أيضا. يقال أصابت فلانة حبة قلب فلان إذا شغف قلبه حبها".

وخلاصة القول لا تنقل لنا اللغة العربية من خلال جذر "حب" ومشتقاته وعي العرب بذاتهم وبالأحر وبالطبيعة وإنما كذلك لاشعورهم الباطن وما يعتمل في دهاليز نفوسهم وهي في كل ذلك تثيري القيم الإنسانية مؤكدة على أن الحُب الإنساني في أرقى أشكاله لا يمكن أن يتجلى إلا في محيط من النماء، عماده النبات والماء في دلاليتهما المباشرة والرمزية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية:

- الأبيشي، شهاب الدين (د.ت). المستطرف في كل فن مستظرف. دار الفكر، بيروت.
- الإمام علي (2004). نهج البلاغة. بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.
- التوحيدي، أبو حيان (1991) المقابسات. تحقيق وتعليق حسن السندوبي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة/ تونس.
- الثعالبي، عبد العزيز (1995). الكناية والتعريض. تحقيق فرج لحوار، دار المعارف، سوسة/ تونس، ط1.
- الجاحظ (د.ت). البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الجيل- دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
- ابن الجوزي، الحافظ (1980). كتاب أحكام النساء. تحقيق ودراسة علي محمد بن يوسف المحمدي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.
- الجويلي، محمد (2019). الأم الرسول: رسالة الأم في الحكاية الشعبية العربية. دراسة انتروبولوجية نفسية، معهد الشارقة للتراث.
- ابن حزم، الأندلسي (2016). طوق الحمامة في الألفة والألاف. مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
- ابن خلدون (د، ت). المقدمة. دار العلم، دمشق.
- ابن منظور (د، ت). لسان العرب. دار المعارف، القاهرة، ط 3.

ثانيا : المراجع الأجنبية:

- Augé, M. (1992). Introduction à une anthropologie de la Surmodernité. Paris: Seuil.
- Augé, M. (2010). Retour sur les non-Lieux: Les transformations du Paysage urbain. Communications, (87).
- Baudelaire, C. (2008). De L'essence du Rire. Paris: Editions Sillage.
- Bertrand, D. (1996). Avant Propos. In Humoresques: Humour et société, (7).
- Bruno Rochette, & Coin-Longeray, S. (2013). L'amour et la haine. Études littéraires et lexicales. L'Antiquité Classique.

-
- Chebel, M. (1993). *L'imaginaire arabo-musulman*. Paris: Presses universitaires de France.
 - Elster, J. (1989). *Nuts and bolts for the social sciences*. Cambridge: Cambridge University Press.
 - Hadège, C., & Jacob, A. (Eds.). (1989). *L'Univers Philosophique, Les Langues humaines et la Différence*. Paris: Presses universitaires de France.
 - Gabbard, G. O. (2000). *Love and Hate in the analytic settings*. Northvale, NJ: Jason Aronson Inc. Publishers.
 - Gates, W. E. (1967). The Spread of Ibn Khaldûn's Ideas on Climate and Culture. *Journal of the History of Ideas*, 28(3), 415-422.
 - Peters, J. R. T. M. (1980). *La théologie musulmane et l'étude du langage*. Histoire Épistémologie Langage.
 - Balamurugan, K., & Thirunavukkarasu, S. (2018). Introduction to Psycholinguistics. *Studies in Linguistics and Literature*, 2(2).
 - Laplanche, J., & Pontalis, J.-B. (1967). Ambivalence. In D. Lagache (Ed.), *Vocabulaire de Psychanalyse*. Paris: Presses universitaires de France.
 - Miquel, A. (2003). *Le Fou de Leila (Le Diwan de Majnun)*. Paris: Sindbad.
 - Chebel, M. (1993). *L'imaginaire arabo-musulman*. Paris: Presses universitaires de France.
 - Schimmel, A. (Year Unknown). *L'Islam au Féminin, La femme dans la spiritualité musulmane*. Translated by Jean Claude Lattés. Paris: Albin Michel.